

بابلو نيرودا
1904 – 1973

"أشهد أنني عشت"

أصعب أنواع الكتابة هي تلك التي تتناول شخصيات ذات عوالم متعددة، من نوع بابلو نيرودا . فهو شاعر كبير ملأ الدنيا وشغل النقاد والناس جميعاً . هو سياسي ومناضل ثوري بالمعنى الرومانسي القديم . وهو شيوعي ملتزم بمرجعية ماركس من دون أدنى تردد وانزياح . وبهذه الصفات جميعها كبر وكبرت شخصيته، وصار نموذجاً مميزاً للمثقف الملتزم في عصره، الملتزم على طريقته بقضايا شعبه وقضايا الإنسان في كل مكان . وحمل معه هذا الإلتزام، بمعانيه المتعددة، في تجواله الذي لم يتوقف في جهات العالم الأربع، شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً . وتحول، بعد وفاته، في أعقاب الإنقلاب الفاشي الذي أطاح حكومة الرئيس الندي الاشتراكية في تشيلي، إلى أيقونة الثوريين في العالم . وانتشرت أشعاره في جميع جهات العالم في لغات شعوبه المتعددة . وانتشرت الكتب والكتابات حوله تتحدث عنه كأسطورة في تاريخ أميركا اللاتينية، التي كانت قد بدأت تحاول التحرر من نير علاقات التبعية المطلقة للولايات المتحدة الأميركية ومخابراتها التي كانت تفرخ بصورة متواصلة " جمهوريات موز . " وهي كانت دكتاتوريات تأتي بانقلابات عسكرية، كانت تعززها وتقودها المخابرات المركزية الأميركية لصالح شركات الموز وتوابعها وأتباعها، ولصالح السياسة الأميركية الساعية دائماً إلى الهيمنة على العالم بكل الوسائل .

لقد أتاحت لي فرصة نادرة في مطالع شبابي للتعرف إلى نيرودا شخصياً عن كثب . كان ذلك في منتصف ستينات القرن الماضي . وكانت المناسبات التي أتاحت لي تلك الفرصة الثمينة هي بعض اجتماعات ومؤتمرات حركة السلم العالمية التي كنت عضواً في هيئتها القيادية اليومية ممثلاً لحركات السلم في العالم العربي . وكان مقر تلك القيادة في فيينا . كان نيرودا في تلك الاجتماعات والمؤتمرات واحداً من بين كبار رموز تلك الحقبة في الثقافة وفي الفكر وفي السياسة في العالم . وكان من مؤسسي تلك الحركة في المؤتمر الذي عقد في باريس في عام 1949 برئاسة العالم الذري الفرنسي جوليو كوري .

كان نيرودا مثل سائر الشعراء، كبارهم على وجه الخصوص، شاعراً يمارس نشاطه في كل الميادين وفي كل الشؤون كشاعر . وهو ما حدده بوضوح في كتاب سيرته . وكان يدهش سامعيه وعارفيه بالجانب العفوي من حركاته وطريقة مخاطبته للآخرين، وباللغة التي كان يتحدث بها والتي كان يكتب بها أشعاره . إذ كان يوحي للقارئ وللسامع أنه أمام شيخ في طباع ومشاعر طفل . يقول ما يرى الحاجة لقوله، من دون حساب لأي اعتبار حتى ولو قاده ذلك إلى دفع الثمن . والثمن كان باهظاً في بعض الحالات، كما يروي هو ذلك في كتاب سيرته الجميل، الذي يحمل عنوان "أعترف بأنني قد عشت . "وأعترف أنا شخصياً بأن مرجعي الحقيقي في تكوين معرفتي بنيرودا، ومرجعي في هذه الكلمات التي أتحدث فيها عنه، هو هذا الكتاب الجميل الذي لا يمكن لأحد ممن يعرفون نيرودا عميق المعرفة أن يكتبوا عنه مثلما كتب هو عن نفسه، وروى قصة حياته من أولها إلى آخر لحظة فيها . وكانت تلك اللحظة لحظة مأساوية جعلت الكثيرين في شتى أنحاء العالم، ممن كانوا معه في موقفه الفكري اليساري، وممن لم يشاركوه ذلك الموقف، يعتبرونه واحداً من كبار الشهداء الذين سقطوا في مواجهة الانقلاب الفاشي الدموي إلى جانب رئيس الجمهورية الندي، والأمين العام للحزب الشيوعي كورفالان، وعدد لا يحصى من أهل الفكر والسياسة والثقافة ومن مناضلي اليسار بتتويجاته المختلفة . وهو الانقلاب الذي أطاح أول تجربة من نوعها في أميركا اللاتينية بعد كوبا، لكن باختلاف جوهره تمثل بحكومة ديمقراطية مؤلفة من الحزبين الاشتراكي والشيوعي وسائر قوى اليسار ومنتخبة ديمقراطياً .

وإذا كان القارئ لا يعرف أن اسم بابلو نيرودا ليس هو الاسم الحقيقي لشاعرنا، فإننا نذكره بأن الاسم

الحقيقي للشاعر هو ريكاردو اليسيرنيتالي ريس بابوالتو . وقد غير اسمه عندما كان في سن السادسة عشرة

من عمره وصار يكتب باسمه الجديد بابلو نيرودا، الذي صار اسمه الحقيقي في دائرة النفوس بعد أن تقدم بطلب تغيير اسمه .

ولد نيرودا في عام 1904 وبعد ولادته بشهر واحد توفيت والدته، فرعته زوجة أبيه .وجاءت الولادة في منطقة يصفها في الأسطر الأولى من كتابه على النحو التالي "... :تحت حمم البراكين، إزاء القمم الثلجية العاصفة، بين البحيرات الكبيرة، الغابة التشيلية المتشابكة الساكنة .من لا يعرف الغابة التشيلية فهو لم يطأ هذا الكوكب الأرضي ...من تلك الأراضي، من ذلك الطين، من ذلك السكون، خرجت أنا لأسير، لأغني عبر الكون..."

ولأن الحياة كانت قاسية بالنسبة لصغار المزارعين في تلك المنطقة وسط البلاد، فقد هاجر والده وهو شاب صغير ليعمل في أحد السدود، ثم ليصبح فيما بعد عاملاً في السكك الحديدية .في عام 1910 دخل بابلو المدرسة .ومنذ بدايات شبابه كان ينمو مع جسمه وعقله اهتمامه بالكتب والنساء معاً .ويروي قصة أول حب جاء إليه بالصدفة .إذ كان زميل له قد كلفه كتابة رسائل إلى حبيبته .وحين عرفت الفتاة المعنية أنه هو الذي كان يكتب لها الرسائل وقعت في غرامه، واستبدلت به صاحب الرسائل التي لم يكن هو محررها .وكان نيرودا في مطلع شبابه في سن السادسة عشرة قد بدأ يكتب الشعر .لكن زملاءه في المدرسة لم يكونوا يعرفون أنه شاعر، وكانوا غير قادرين على التصديق بأنه شاعر .لكنه يقول بأن مصدر الإلهام عنده في الشعر كان منذ البدايات الطبيعة والحب.

يتحدث نيرودا في كتابه عن قصيدته الأولى فيقول " :لقد سئلت مرات عديدة :متى كتبت أولى قصائدي، ومتى ولد فيّ الشعر .سأحاول أن أتذكر .في طفولتي، في بداية تعلمي الكتابة، شعرت ذات مرة بعالم عارم يغمرنني، فسطرت بضع كلمات شبه مسجوعة، عجبت لها ومنها .فقد كانت مختلفة متميزة عن الحديث

اليومي والكلمات الأليفة .أعدت نسخها في خط أنيق، بعد أن شذبتها .كنت حينذاك أسير جو عميق، سجيناً لشعور ما كنت أشعر به من قبل .شعور مستيطن غير مسبور .نوع من الكآبة والأسى .كانت قصيدة موجهة إلى أمي، أي إلى المرأة التي كنت أدعوها أمي، إلى خالتي زوجة أبي الملائكية، التي حمى ظلها الخفيف اللطيف طفولتي كلها."

واجهته ، وهو في السادسة عشرة من عمره في مدينة تمونكو التي كان قد انتقل إليها مع والده وبدأ فيها دراسته الابتدائية، حادثة قاسية تركت تأثيرها على حياته . إذ هاجم أفراد من منظمة الشبيبة الذهبية التابعة لسلطات المنطقة مقر اتحاد الطلبة وحطموه .وكانت العدالة في خدمة الأغنياء، كما يقول . إذ سجن المعتدى عليهم بدل المعتدين .وقضى أحد الشباب المعتقلين نحبه في المعتقل تحت التعذيب.

انتقل في عام 1921 إلى سنتياغو ليلتحق بالجامعة .وفي عام 1923 نشر أول دواوينه بعنوان "شقيقات" .وكان عليه لكي يصدر هذا الديوان أن يبيع جزءاً من أثاث منزله، وساعته، وأشياء ثمينة أخرى . إذ أن الناشر كان يطلب منه دفع تكاليف النشر كامله .لكنه كان شديد الفرح إلى حد الجنون عندما رأى ديوانه منشوراً .وبدأت منذ ذلك التاريخ مسيرته الشعرية .وبدأ ينشر قصائده في المجلات .وبدأ يصدر دواوينه الواحد تلو الآخر .وكان ديوانه" عشرون قصيدة حب "من أوائل دواوينه في مرحلة الشباب .لكن ديوانه الأول كان "شقيقات" الذي صدر في عام 1920.

غير أن نيرودا بدأ يتحول إلى مناضل مع جمهور زملائه الطلاب دفاعاً عن القضايا الشعبية العامة وعن قضايا العمال .وصار يشارك في التظاهرات التي غالباً ما كانت تواجه بالقمع من قبل السلطات . وكان يناله نصيب من الضرب أسوة بزملائه .وكان يجمع ويوحد، في شبابه الأول، بين تطور شخصية الشاعر فيه، وبين المناضل الثوري .وكان يقوده اهتمامه بالشعر وبالآدب عموماً إلى الحصول على جوائز

أدبية في أكثر من مناسبة . كما كان يقوده اهتمامه ذلك إلى تسلم ميداليات في جمعيات أدبية ,حتى وهو طالب . وكان يقوده نشاطه الأول، في الوقت عينه، إلى رئاسة تحرير مجلات أدبية.

عين في عام 1927 قنصلاً فخرياً في " رانغون " عاصمة بورما . وتتنقل في مهمات دبلوماسية في عدة بلدان . وابتداءً من عام 1933 أصبح شاعراً كبيراً، بعد أن كان قد نشر عدة دواوين، وارتقي بشعره إلى مصاف كبار شعراء أميركا اللاتينية . وبدأ بالتعرف في تجواله إلى كبار الشعراء . وكان من أوائل من تعرف إليهم شاعر أسبانيا الكبير فيديريكو غارسيا لوركا، الذي صار صديقه ورفيقه الحميم .

في عام 1932 انتقل نيرودا إلى برشلونه لتسلم منصبه قنصلاً فيها، ثم انتقل بعدها إلى مدريد بصفة قنصل عام في أسبانيا . وفي عام 1936 بدأت الحرب الأهلية في أسبانيا . وأصيب بفجعة مقتل صديقه لوركا . عزل من منصبه خلال الحرب الأهلية الأسبانية، وسافر إلى باريس، حيث أصدر مجلة تحمل اسم "شعراء العالم يدافعون عن الشعب الأسباني . "وعاد في العام ذاته إلى تشيلي ليؤسس ويرأس فور عودته "حلف متقفي التشيلي دفاعاً عن الثقافة"، ونشر ديوانه " أسبانيا في القلب . "ثم أسس في العام التالي مجلة "فجر التشيلي".

في باريس تعرف نيرودا إلى بول الوار ولويس أراغون . ويصف علاقته بكل منهما على النحو التالي :
لقد تمتعت باللذة الشعرية في إمضاء الوقت طويلاً مع بول الوار . لم أكن أحس معه بالليل وبالنهار كيف يمضيان . كنت أخرج وأنا أبتسم دون أن أعرف لماذا أنا أبتسم . أما أراغون فقد كنت أخرج من لقائي معه منهكاً، لأن هذا الإبلis كان يحضني على التفكير ."

لقد كانت الحرب الأهلية الأسبانية هي البداية في طريق نيرودا إلى الشيوعية . كان في البداية صديقاً للحزب الشيوعي . لكنه صار عضواً عاملاً في صفوفه . سافر في جهات العالم الأربع حاملاً معه شعره ومشاعره فيه، وحاملاً معه، في الوقت ذاته، أفكاره التي صارت ماركسية، وحاملاً معه حسه النقدي لما كان يراه، حتى في الإتحاد السوفياتي وفي الصين في سلوك زعيمها ماوتسي تونغ وفي كوبا في موقف زعيم ثورتها فيدل كاسترو . لكنه كان في نقده للممارسة الخاطئة باسم الإشتراكية ينطلق من حرص عميق عنده في أن يرى أفكاره الإشتراكية وأحلامه فيها خالية من الشوائب ومن عناصر الخلل . وكان بذلك يمارس دور المثقف النقدي بامتياز . وكانت بين جولاته في العالم زيارته إلى الهند واللقاء مع غاندي ومع نهرو، وزيارته إلى المكسيك التي يفرد فيها في مذكراته فصلاً كاملاً . وكانت له أيضاً زيارات إلى الولايات المتحدة الأمريكية التي رأى فيها كل تناقضاتها .

في عام 1945 انتخب نيرودا نائباً في البرلمان بصفته شيوعياً، بعد أن كان قد أصبح عضواً في الحزب الشيوعي في ذلك العام بالذات . وخلال أعوام الأربعينات سافر إلى أقطار أميركا الجنوبية شاعراً يقرأ قصائده . وكتب قصائد جديدة، ونشر دواوين جديدة، وحصل على جوائز جديدة . وفي عام 1948 صدر حكم باعتقاله بعد عزله من النيابة، فهرب من التشيلي عبر الجبال وصولاً إلى باريس التي شارك فيها في عام 1949 في المؤتمر التأسيسي لمجلس السلم العالمي، كما أشرت إلى ذلك آنفاً .

في عام 1971 رشحه الحزب الشيوعي لموقع رئيس الجمهورية . وبدأ نشاطه الإنتخابي . وعندما قرر حزبه مع " الوحدة الشعبية " التي تمثل تحالف اليسار، ترشيح سلفادور الندي للرئاسة سحب نيرودا ترشيحه، ورافق الندي في حملته الإنتخابية خطيباً في الجماهير . نجح الندي في الإنتخابات وأصبح أول رئيس إشتراكي في التشيلي .

لقد عبرت قصائد نيرودا التي احتوتها دواوينه العديدة عن شخصيته بكل جوانبها .لكنه أراد أن يقول، وهو يكتب سيرة حياته، في الفصل ما قبل الأخير منها، رأيه في الشعر، ورأيه في علاقة الشعر بالحياة، ليس كوظيفة محددة، بل كحياة معاشة بكل المعاني.

يحق لنيرودا أن يعترف بأنه عاش .ولقد عاش كما يعيش الكبار في بلدانهم، مع شعوبهم، ومع قضاياها، من دون أن يفقد شخصيته، التي هي تعبير عن ذاته، ومن دون أن يفرض على شعره سوى ذاته، ومن دون أن يقيم حاجزاً بين شعره وبين أفكاره وبين ممارسته لأفكاره في النضال من أجل الحرية.

خير ما أستشهد به من شعره القصيدة التي رثى فيها صديقه ناظم حكمت الذي سبقه إلى مغادرة الحياة في عام 1963. يقول نيرودا في تلك القصيدة:

|

ماذا فقدنا ، أنا وأنتم
عندما سقط ناظم حكمت كبرج
كما ينهار برج أزرق؟
يبدو لي أحياناً
أن الشمس ذهبت معه الذي كان النهار،
نعم، كان ناظم حكمت نهراً ذهبياً
يؤدي واجبه أن يولد من جديد كل فجر
برغم القيود والعقوبات
وداعاً، أيها الرفيق المضيء،

سافيتش الحلوة بين سانت باسيل

وبيوت المطار الجديدة،

أو في حي أريات سري أيضاً

متدوقاً نبيذي التشيلي، يسكبه

في جلد الصنبورة للفته

سافيتش، معك ضاعت

النحلة الذهبية

التي خلقت هنا عسل خليتي

يا صديقي العذب، يا رفيقي الشفاف.

||

آه !كثير من الدماء هنا !كثير من الحروب!

وكثير من الرعب !وكثير من العذوبة

ما الذي توأخيه، لأنهر؟ تلجأ ودماً

المدن، ماذا كانت؟

رماداً ودخاناً .لا شيء آخر.

مع هذا، ثمن حطامها

يقذف الرشاش

يرى الأبطال بروقهم.